الفصل الثالث

جوانب ضياء الدين

١ – ضياء الدين المؤلف

نستطيع أن نقسم كتب ضياء الدين إلى ثلاثة أقسام هى : قسم المختارات والبلاغة وصناعة الإنشاء ، والمعارف العامة .

ويندرج تحت القسم الأول مجموعة من كتب المختارات فى الحديث والشعر والأمثال . وقد أشرنا منذ قليل إلى كتابه من مختارات الأحاديث ، ولم يصلنا شىء عن هذا الكتاب وربما لم يهتم ضياء الدين بعرضه على الناس ، أو ربما ضاع بين ما ضاع من مؤلفاته .

وله كتاب مختصر جرد فيه أمثال الميدانى . قال فى المثل السائر : « وكنت جردت كتاب الأمثال للميدانى أوراقاً خفيفة تشتمل على الحسن من الأمثال الذى يدخل فى باب الاستعمال » .

ومن مختاراته الشعرية مجموعة من مختار شعر أبى تمام والبحترى وديك الجن والمتنبى فى مجلد واحد كبير . قال ابن خلكان : « وحفظه مفيد »[1] . وقال عنه ابن المستوفى : نقلت عنه من خطه فى آخر هذا الكتاب :

تمتع به علقاً نفيساً فإنه اخ تيارٌ بصير بالأمورِ حكيم
أطاعته أنواع البلاغة فاغتدى إلى الشعر من نَهجٍ إليه قَويم

ولم يصلنا هذا الكتاب فيما وصل من كتبه .

وهناك كتاب ثالث وصلنا ، ولكن يشك فى نسبته إليه وهو « مؤنس الوحدة »

---

(١) وفيات الأعيان ٥/٢٨ .

مجموع يحوى طائفة من جيد الشعر لجماعة من الشعراء المعروفين كالبحترى وابن الرومى وأبى تمام وآخرين من شعراء القرنين الخامس والسادس ، ومرتب حسب الموضوعات فيبدأ بالمديح ثم الهجاء ، وقد جاء فيه بكثير من شعر ابن الرومى . . . ثم موضوعات الشعر الأخرى ، ووجه النظر أثناء عرضه لمقطوعات الشعر أو أبياته المختارة إلى ما فيها من المعانى والتشبيهات . وتدل على ذوق حسن فى فهم الشعر

ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية مصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة كوبريللى من مخطوطات القرن السابع ، وعلى الصفحة الأولى أنه لابن الأثير ، ولم يعينه ونسب فى فهارس دار الكتب إلى ضياء الدين ، ويبدو أن فى الأمر لبساً ويغلب أنه لعماد الدين بن الأثير الحلبى (توفى سنة ٦٩٩ هـ) المتأخر عن ضياء الدين [١] .

تحفة العجائب :

وكتاب آخر ينسب إليه ولم تثبت صحة النسبة ، واسمه « تحفة العجائب وطرفة الغرائب » لم يشر إليه أحد ممن تعرض له بالترجمة ، وهو مجموعة من الشعر والنثر فى مشاهد الكون المختلفة من سماء ونجوم وشمس وقمر وماء ونهر وشجر ، ويقع فى جزأين كبيرين ، وهو من المجموعات الطريفة فى موضوعها خاصة وأنه سبق النويرى .

ومنه نسخة أصلية بمكتبة كوبريللى مذيلة بأنها تمت كتابة فى اليوم العاشر من شهر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة (٧٨٢ هـ) . وهى منسوبة لضياء الدين . وكذلك ينسبها صاحب كشف الظنون إليه [٢] . وتولى ناشر الكتاب تصحيحها ونسبتها لأخيه عز الدين . وذكر كوركيس عواد أن هناك نسخة من الكتاب بجامعة برنستون بالولايات المتحدة منسوبة إلى عماد الدين بن الأثير الحلبى

---

(١) راجع ضياء الدين بن الأثير وجهوده للمؤلف ص ٦٧ .
(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ١ / ٣٦٩ ط ١٩٤١ .

السابق وصاحب كنز البراعة[١]. وذكر جورجى زيدان أن نسخة منه موجودة بالمكتبة العثمانية بحلب .

وله مجموع فى معانى الشعر أشار إليه فى كتاب الاستدراك وسماه « عمود المعانى » قال : « وقد ألفت فى ذلك كتاباً وسميته عمود المعانى ، وجعلته مقصوراً على ضروب المعانى الموجودة فى النظم والنثر وما فيها من الأعمدة المطروقة ، وما يخرج عنها من الشعب . وهذا كتاب تعبت فى تأليفه زماناً طويلاً ، وأنا ضنين به[٢] » .

وأما كتبه فى البلاغة فأشهرها كتابه المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر وهو أكبرها . ويغلب على الظن أنه آخر ما ألف من الكتب ، أو ربما سبق كتاب الاستدراك ، ولكنه ألفه على أية حال فى العشرين عاماً الأخيرة من عمره وليس بعد ذلك على الأرجح ، وظل يدرّسه بالموصل ، ويعيد فيه ويزيد أو ينقص حسب ما يتراءى له . ونقول إنه انتهى من تأليفه قبل وفاته بأكثر من خمس عشرة سنة ، لأنا نجد نسخة منه قديمة بدار الكتب المصرية فرغ كاتبه منه فى يوم السبت الحادى والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٢ هـ وفى أوله إجازة بخط المؤلف كتبها بالموصل فى شهر شعبان سنة ٦٢٢هـ أجاز بها الشيخ عضد الدين أبا محمد مظفر بن محمد بن على بن جعفر الدمشقى .

ويقوم موضوع الكتاب على أساس علم البلاغة بكل أبوابه ، وما يتصل منها بالنثر أو الشعر جميعاً بالإضافة إلى مجموعة من النصائح والإرشادات الموجهة إلى الشعراء والكتاب فى أصول الصناعة . وبنى الكتاب على مقدمة وقسمين كبيرين أحدهما خاص بالألفاظ أو الصنعة اللفظية والثانى بالصنعة المعنوية .

وتناول فى المقدمة أصول صناعتى الشعر والكتابة . واهتم بالكتابة أكثر من اهتمامه بالشعر ونصح الكتاب نصائح لإجادة الصنعة فيها ، وأول ما ينصح به

---

(١) المخطوطات العربية فى دور الكتب الأمريكية ص ٣٣ ط الرابطة ببغداد سنة ١٩٥١ .
(٢) الاستدراك . المقدمة .

الكاتب أن يكون له طبع وميل للكتابة ، وأن يتعلم العربية ، والنحو ، وأصول اللغة ، ويحفظ أمثال العرب وأشعارهم القديمة والمحدثة ، ويحفظ القرآن ويتدرب على استعماله ، والحديث والأخبار النبوية ، ومعرفة الأحكام السلطانية والتاريخ وأيام العرب وأخبارهم والاطلاع على تأليفات من تقدم من المنظوم والمنثور ، ومعرفة العروض والقوافى .

ثم يتحدث فى المقالة اللفظية عن خصائص الألفاظ مفردة ، ويجمعها فى سهولة النطق ، والبعد عن الغرابة والحوشية والابتذال ، مع حسن وقعها فى السمع ، وأن يقبلها الذوق ولا ينفر منها الطبع وتكون جارية على قواعد اللغة وأصولها فى البناء والإعراب .

وأما خصائص اللفظ المركب فأكثرها شبيه باللفظ المفرد ، وفصاحة المركب متصلة كذلك بحسن التأليف وهو أن لا يثقل على اللسان النطق به فيصير متعسراً فى النطق أو ثقيلاً على السمع لتعاقب الأفعال مثلاً ، وأن يكون فى تأليفه قريباً من المألوف غير شاذ كالتراكيب فى الضمائر وتعاقب حروف الجر وما إليها . ويجعل من أبواب الألفاظ المؤلفة مما اعتاده الناس من أبواب البديع والبلاغة السجع فى المنثور ، والتصريع فى المنظوم ، والتجنيس ، والترصيع وازوم مالا يلزم ، والموازنة فى المنثور .

والقسم الثانى الخاص بالمعانى يتحدث فيه عن أبواب المعانى المعروفة فى علم البلاغة أو معانى القول أى المعانى الإجمالية والجزئية كمعانى الغزل ، ومعانى المدح وما إليها والمعانى القسم الخاص والمصطلح البلاغى الذى يندرج تحته أبواب التقديم والتأخير والالتفات والإيجاز والإطناب والاستعارة والتشبيه والكناية وما إليها .

ثم يختم الكتاب بالكلام فى السرقات باعتبار أن السرقات ضرب من المآخذ المعنوية ، وتصرف الشعراء فى المعانى المختلفة والمشتركة .

وفى موضوع المثل السائر نجد كتاباً آخر منسوباً لابن الأثير هو « الجامع

الكبير فى صناعتى المنظوم والمنثور » وينسب هذا الكتاب فى كل المراجع تقريباً إلى ابن الأثير الجزرى ، ومع ذلك فلم يذكره أحد ممن تعرض لترجمته من كتبه فلم يشر إليه ابن خلكان ولا صاحب مرآة الزمان ، ولا مرآة الجنان ، وقال عنه القلقشندى وقد عدد أهم الكتب فى علم البيان : « من الكتب المنفردة به كتاب نهاية الإيجاز للإمام فخر الدين الرازى ، والجامع الكبير لابن الأثير الجزرى[١] » بينما ينسبه السبكى فى عروس الأفراح لأخيه عز الدين[٢] ، وكذلك جاراه حاجى خليفة فى كشف الظنون[٣] .

وقد رأينا أنه ربما كان الكتاب لضياء الدين[٤] ، ولكنا نعود فنرجح أنه لعز الدين وليس اشتراك الكتابين « المثل السائر » و « الجامع الكبير » فى المنهج وفى بعض العبارات بدليل يكفى للتدليل على أن صاحب الكتابين واحد ، بل نرى إن بهما ما يدل على أن المؤلف فيهما مختلف ، ففى المثل السائر تبدو شخصية ضياء الدين فى اعتداده بنفسه وأدبه وكثرة استشهاده برسائله ، وسخريته بغيره من العلماء ، ونرى روح مؤلف الجامع الكبير مختلفة تماماً ، فهو لا يستشهد بكتاباته إلا قليلاً . وهو أكثر تحديداً لضروب البيان والبديع وأبوابهما بصورة تقرب من مناهج معاصريه ، على خلاف المثل السائر الذى يحفل بالتحليل وينحى عديداً من صور البديع ويثور عليها كثيراً .

والكتاب الثانى الذى ثبت لضياء الدين ، واتضحت فيه ملامح شخصيته هو كتاب « الاستدراك على المآخذ الكندية » وهو فى السرقات أو المعانى المشتركة بين الشعراء ، وجعله استدراكاً على كتاب « المآخذ الكندية من المعانى الطائية » أو سرقات المتنبى من أبى تمام لابن الدهان .

وثبوت الكتاب لضياء الدين دون غيره من أبناء الأثير إخوته أو من بعدهم

---

(١) صبح الأعشى ١/٤٦٨ .
(٢) عروس الأفراح ١/٣٠ ، ٩١ .
(٣) كشف الظنون ١/٥٧١ .
(٤) راجع ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ص ٦٩ .

واضح فقد أشار فى المثل السائر إلى أنه ألف مقالاً أورد فيه كلامًا عن السرقات والمعانى فقال : « ولى فى هذا مقالة مفردة ضمنتها الحكم على المعنيين المختلفين ، وتكلمت فيه كلامًا طويلاً عريضًا ، وأقمت الدليل على ما نصصت عليه وما منعنى من إيرادها فى كتابى هذا إلا أنها سنحت لى بعد تصنيفه وشياعه فى أيدى الناس ، وتناقل النساخ له[1] » .

كذلك أشار فى الاستدراك إلى المثل السائر قائلا : « ولو أخذت فى استقصائه لا تسع المجال ، ولكنه يوجد فى كتابى الموسوم بالمثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، فإنه موضوع لبيان أسرار الألفاظ وتفصيل أقسامها[2] » .

وأهم ما فى الكتاب مقدمته الطويلة فى المعانى المشتركة والمآخذ بين الشعراء ويبدو منها انتصاره للمتنبى وتقديمه له ولشعره وتفضيله اتجاهه واتجاه أبى تمام وأمثالهما من شعراء الحكمة وأصحاب المعانى العقلية والتجارب المستمدة من الحياة على الشعراء الوصافين المصورين كامرئ القيس وأبى نواس فى بعض شعره .

ثم يظهر فى الكتاب ميله إلى عدم الارتكان إلى تحكيم اللغويين وأصحاب القواعد والأصول فى معانى الشعر أو المبالاة بآرائهم فى جودة الشعر . أو شرحه وفهمه ، فإن منهم من لم يحسن فهم الشعر ولا تذوقه لاقتصاره منه على تتبع غريبه ، وما يحتاج من لفظه إلى بيان أو تفسير . أو ربما اهتم عالم النحو بإعرابه وتوجيه بعض ألفاظه . وهذا عنده لا يجدى فى صنعة الشعر فتيلاً .

وحاول فى هذا الكتاب أن يستدرك على ابن الدهان باعتباره عالمًا لغويًا ونحويًا مشهوراً فى بلده وعصره ، مبينًا نظريته التى قال بها وهى أن معرفة اللغة والإلمام بقواعد النحو شىء والمعرفة بأسرار علم البيان وحسن تذوق الشعر شىء آخر .

وبعد هذه المقدمة الطويلة التى يعرض فيها لجوانب مختلفة من أصول نقد

---

(١) المثل السائر ٢/٤٠٩ .
(٢) الاستدراك نسخة الخالدية ورقة ١٧ .

الشعر مع بيان مذهبه فى ذلك يأتى الكتاب أو صلب الكتاب وهو استدراكاته على ابن الدهان فيما نسبه إلى المتنبى من سرقات من أبى تمام مبينًا أن بعض ما اتهمه فيه بالسرقة ليس كذلك لأنه مأخوذ من معانى القدماء أو مثله فى ذلك مثل أبى تمام فكلاهما وارد على ما ورد عليه صاحبه ، كما بين فى استدراكاته خطأ ابن الدهان أحيانًا فى نسبة بعض الشعر إلى المتنبى أو إلى أبى تمام وليس لكليهما أو أنه اتهم المتنبى بالسرقة فى بعض المعانى ولا يمكن أن تعد كذلك لبعد ما بينهما أو لعدم وجود صلة واضحة بين المعنيين ، وهكذا متتبعًا فى ذلك ما اتبعه ابن الدهان من تناول ديوان المتنبى حسب ترتيب القوافى .

وأما القسم الثالث من كتبه وهو الخاص بصناعة الإنشاء فنستطيع أن ندرج فيه كتابين أحدهما « الوشى المرقوم فى حل المنظوم » و « المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء » .

أما الكتاب الأول فقد طبع منذ زمن ، وهو صغير الحجم ويتعرض لجانب من جوانب الصناعة ، وهو حل الشعر ، أى نثره فى أسلوب جميل مناسب ، ويعرض نماذج لذلك من صنعته .

والكتاب الثانى ورد بهذا الاسم فى كل من نقل ترجمته ابتداء من ابن خلكان ولكن ما عثرنا عليه كتاب منسوب إليه ويحمل اسمًا آخر هو « مفتاح المنشأ فى صناعة الإنشا » . وقد نسبه إليه بروكلمان بين كثير مما ليس له من كتب أخيه أو عماد الدين بن الأثير . والصحيح أن الكتاب ليس له فهذا الكتاب يبحث فى أوليات الكتابة ، وطريقة عمل الرسالة ، وأسلوب الكتاب مخالف إلى حد كبير لأسلوبه فى المثل السائر والاستدراك ويغلب على الظن أنه لعماد الدين صاحب كنز البلاغة أو لابنه ، وإن كنت لا أقطع بذلك فهناك مجال كبير لإثبات الكتاب لصاحبه الحقيقى يمكن البحث فيه .

وبالإضافة إلى هذه الكتب فإن له ديوان رسائل كبير قال ابن خلكان وغيره إنه فى عدة أجزاء والمختار منه فى مجلد .

٢ ـ ضياء الدين الكاتب المترسِّل

عمل ضياء الدين بكتابة الرسائل منذ شبابه المبكر ، فقد التحق بالأفضل بن صلاح الدين وكتب لصلاح الدين ثم للأفضل ثم لأصحاب الموصل . وظل على ذلك إلى أن توفى .

وقال عنه اليافعى فى مرآة الجنان[١] : «وقال ابن خلكان ، ولابن الأثير المذكور كل معنى بليغ فى الترسل ، وكان يعارض القاضى الفاضل فى رسائله ، فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها ، وكانت بينهما مكاتبات ومجاوبات ، ولم يكن له فى النظم شىء حسن » .

وعاب عليه ابن خلكان مبالغته احياناً فى بعض معايبه لدرجة قد تصل إلى تكفير صاحب المقال .

وقد استشهد بكثير مما كتب فى المثل السائر والوشى المرقوم ، وآخذه ابن أبى الحديد فى الفلك الدائر على ذلك. قال : « وضرب كلامه أمثلةً أكثرها جيد ، وفيها ما ليس بجيد مثل قوله (فسرنا فى غمامة من الكتائب ، تظللها غمامة من الطيور الأشائب ، فهذه يضمها بحر من حديد ، وهذه بحر من صعيد) ، وذلك لأن الصعيد وجه الأرض ، والطيور التى تظل الجيش إنما يضمها بحر من الجو والهواء لا من الأرض »[٢] . إلا أنه مع ذلك يعجب بطريقته فى حل المنظوم ويعتبر أنه أقام صناعته على هذا الفن أى حل الشعر .

قال ابن أبى الحديد : « واعلم أن هذا الباب وهو حل المنظوم هو عين هذا الكتاب وخلاصته ، ووجه جملته ، وطراز حلته ، وكأنه لم يصنفه إلا لأجله وليظهر صناعته فيه ، وعلى أن كتابته كلها إذا تأملها العارف بهذا الفن وجدها من هذا

---

(١) مرآة الجنان ٤/٩٩ .
(٢) الفلك الدائر ٤٤ .

الباب ، لأنها إما محلول منظوم أو ترصيع آية أو خبر أو مثل أو واقعة وهذه إحدى طرائق الكتاب عندى وإليها أذهب ولها أستعمل » .

وتقول إن هذا الذى قاله ابن الحديد ليشخص أهم خصائص كتابة ضياء الدين فقد اعترف فى أول المثل السائر بأنه قد حفظ القرآن وكثيراً من الحديث والسنة النبوية والأخبار والشعر وما إلى ذلك واستخدمها فى كتابته عن طريق الحل والاقتباس والتضمين والاستعانة بالألفاظ والمعانى ، أو المجاراة فى النسق وطريقة التأليف وما إلى ذلك .

ولكنه مال أيضًا إلى طريقة العصر فى أن عمد إلى أسلوب السجع ، ولم يكن يميل فى سجعه إلى الفقرات القصار ، كذلك لم يكن يستخدم السجع الطويل الفقرات بل كان يراوح بين فقراته طولا وقصراً . وعد هذا أحسن وأدعى إلى طول نفس الكاتب وأتم لإظهار معانيه واستيعاب ألفاظه لها .

وتأثر بالقاضى الفاضل فى كثير من خصائص فن الكتابة ، ونعلم أن الفاضل استغل الاستعارة والتشبيه أتم استغلال كما استخدم التضمين والاقتباس من القرآن الكريم والشعر القديم أجمل استخدام . كذلك أشاع التورية فى كتابته حتى عدت من دعائمها كما يقول ابن حجة الحموى ، ومن ثم كانت من خصائص المدرسة المصرية فى الكتابة .

وكان الفاضل نفوراً من السجع المتكرر المتكلف ، وكذلك كان ضياء الدين ولم يكن ميالاً إلى تكرار الكلام فى السجع أى تكرار المعنى الواحد فى فقرتين متتاليتين وعد ذلك عيبًا فى الصناعة وعيبًا .

ولكنه بالرغم من هذا كله كان يفتقر إلى حد كبير فى كتابة الرسائل إلى الرشاقة وخفة الظل التى اتسمت بها رسائل القاضى الفاضل وإن لم تسرف فى الثقل إسراف رسائل العماد الأصبهانى . وأسلوبه المرسل فى المثل السائل والاستدراك أجمل من أسلوب رسائله المتكلف .

٣ ـ ضياء الدين الناقد

تعود نقاد العرب تناول بعض الموضوعات فى العمل الأدبى والأديب وما يحيط بها تفصيلاً ، وإغفال بعضها الآخر ، أو تناولها تناولاً هيناً أو عارضًا . وإذا كنا نتصور النقد تفسيراً للأدب ، ومحاولة لتذوقه والحكم عليه أو وضعه موضعه اللائق فإن الوصول إلى ذلك يمكن السلوك إليه وفقًا لمناهج النقد المعاصرة بعدة طرق منها : التعرض للنص نفسه واكتشافه ، عن طريق دراسة جوانبه المختلفة ، جوانب الأسلوب ، والموضوع ، والغاية وما يمكن أن نستدل عليه أو نستشفه من شخصية صاحبه ونفسيته وما إلى ذلك ، ومدى ما يمكن التوصل إليه من صدق فنى أو كذب .

ثم قد نعرض لجوانب خارجة على النص أثرت فيه ، فنعرض الأديب نفسه وما يتصل بمكوناته الأدبية ، من موهبة ، وما ألهمه للعمل الأدبى ، وإمكانياته الفنية ، أو قدرته ، وقد يحتاج الأمر لعرض وضعه الاجتماعى ومكانته أو بيئته التاريخية أو الزمنية .

ولا نتوقع أن يلم القدماء من نقادنا بكل هذه الجوانب ، ولكنا مع ذلك لا نقول إنهم تجاهلوها تمامًا أو غفلوا عنها فلم يدرسوها ، أو لم يتوصلوا إلى علاقتها بالنص الأدبى وصاحبه .

وفى عرضنا لضياء الدين الناقد نتدرج فى حديثه عن جوانب مختلفة من قضايا النقد العديدة التى تتعرض لتلك الأمور من زوايا قريبة أو بعيدة .

كلامه عن المؤلف شاعراً وكاتبًا وأثر تكوينه فى عمله :

ويحدثنا ضياء الدين عن المؤلف فى أول حديثه عن آلات الكتابة والنظم ، فيرى أن من هذه الآلات الطبع أو الاستعداد الفطرى ، وعن طريق هذا الطبع يهتدى الشاعر والكاتب إلى البديع المخترع من المعانى : « إن المعانى المخترعة

لم يتكلم فيها أحد بالإشارة إلى طريق يسلك فيها ؛ لأن ذلك مما لا يمكن . ومن هاهنا أضرب علماء البيان عنه ، ولم يتكلموا فيه كما تكاموا فى غيره ، وكيف تتقيد المعانى المخترعة بقيد أو يفتح إليها طريق يسلك وهى تأتى من فيض إلهى بغير تعليم ، ولهذا اختص بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض ، والذى يختص بها يكون فذًّا واحداً يوجد فى الزمان المتطاول [1] » .

ويشبه الموهبة الكامنة لدى الشاعر الموهوب أو الكاتب المبدع بالنار الكامنة فى حجر الزناد تظهر وتتطاير بالاحتكاك والقدح . وأنه لا يجدى التحصيل والمعرفة بآلات الكتابة والشعر من حفظ أو تمرس بصناعتها دون الموهبة : « فإنه إذا لم يكن ثَمَّ طبع فإنه لا تعنى تلك الأدوات شيئًا » ، ومثل ذلك مثل النار الكامنة فى الزناد والحديدة التى يقدح بها ، ألا ترى أنه إذا لم يكن فى الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئًا [2] » .

و يتفاوت درجة الموهبة لدى الأديب تتفاوت درجات ما يصدر عنه من الأدب فالأديب المطبوع تحس فى أدبه روح الابتكار والصدق ، وغير المطبوع الذى ليست له موهبة تلمس فى أدبه روح التكلف وأثر الصنعة . وتتراوح درجات الطبع والصنعة تبعاً لدرجات الموهبة والمعرفة لدى الشاعر ، والشاعر المطبوع العارف العالم يأتى شعره فى الدرجة العليا وضربوا المثل فى ذلك بأبى تمام والمتنبى . وقد أعجب بهما ابن الأثير وضرب المثل بأشعارهما وقارن بين شعر أبى تمام وشعر أبى العلاء المعرى فقال إن حسن هذا مطبوع وحسن ذاك مصنوع . ثم يشرح علة اتهامه لأبى العلاء وشعره فى اللزوميات بالتكلف والصنعة ، فقال : لا شك أن صورة الخلقة غير صورة التخلق . فإن قيل ما الفرق بين المتكلف من هذه الأنواع وغير المتكلف قلت فى الجواب : أما المتكلف فهو الذى يأتى بالفكرة والروية ، وذلك يضنى الخاطر فى طلبه ، ويبعث على تتبعه واقتصاص أثره ؛ وغير المتكلف يأتى مستريحًا من هذا

---

(١) المثل السائر ١ / ٣٤٥ .
(٢) المثل السائر ١ / ٧ .

كله ، وهو أن يكون الشاعر فى نظم قصيدته أو الخطيب أو الكاتب فى إنشاء خطبته أو كتابته ، فبينا هو كذلك ، إذ سنح له نوع من هذه الأنواع بالاتفاق لا بالسعى والطلب » .

فالقول المطبوع كالحسن المطبوع يكون خلقه ، ومن صنع الفطرة ، وهو مقبول يقع فى القلب ، ولا يدعو إلى التقصى والتعب فى التتبع .

وللمعرفة شأنها مع الطبع لأنها تقويه وتغنيه ، وتطيل من تدفقه وحيويته فالاطلاع على الأدب القديم والحديث ، وحفظ مختاره والتدرب على تقليده أمر لازم فإن فى ذلك فوائد جمة لأن الشاعر أو الكاتب يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم ، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته فى ذلك فإن هذه الأشياء مما يشحذ القريحة ويذكى الفطنة . وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفًا بها تصير المعانى التى ذكر ، وتعب فى استخراجها كالشىء الملقى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد ، وأيضًا فإنه إذا كان مطلعاً على المعانى المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه . ومن المعلوم أن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة فى الجودة والرداءة فإن بعضها : « يكون عاليًا على بعض أو منحطًا عنه إلا بشىء يسير ، وكثيراً ما تتساوى القرائح ، والأفكار فى الإتيان بالمعانى حتى إن بعض الناس قد يأتى بمعنى موضوع بلفظ ، ثم يأتى الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول[1] » .

النص الأدبى :

وأما كلامه عن النص الأدبى فقد استغرق كل آرائه النقدية كغيره من علماء البلاغة . فتكلم عن الصياغة من جوانبها المختلفة ، الألفاظ المفردة ، وما ينبغى أن يتوفر لها من الفصاحة التى لها شروط ، ومن حيث التأليف وتركيبها بعضها إلى جانب بعض ، ثم من حيث المعانى ، ودلالة التأليف على المعانى المختلفة دلالات

---

(١) المثل السائر ١/١٨ .

تتفاوت بأوضاع التأليف وأشكاله وبالقدرة على تخيل المعانى وتصويرها ليستجيب لها الإدراك وتثبت فى الذهن أو تؤثر فى المشاعر بأحاسيس مما يتطلبها الموقف .

ولم يتعرض ضياء الدين لمراحل الخلق الأولى للعمل الأدبى كما حاول ابن طباطبا فى عيار الشعر . ولكنه حاول الفصل بين المعنى واللفظ ، وليس يقصد بالمعنى «المدلول» اللفظى المحدود ، ولا معنى اللفظ المفرد وإنما يقصد معنى العبارة أو المعنى البلاغى فى الجملة .

ويرى أن الشاعر إذا قال شعراً ، فينبغى له أن يعيد النظر فيه لعله يتراءى له أن يثقفه أو يعدّل ويبدل حتى يستقيم كما ينبغى ، فكأنه ارتأى أن لا يكتفى الشاعر بالتعبير الأولى أو التعبير الشعرى ، بل يجب التعديل أو محاولة الوصول للمرحلة الثانية وهى التعبير البلاغى بإدخال الصنعة والزخرف اللفظى والموازنة والتناسب بين المعانى ، وما إلى ذلك . ويرى جماعة أن أى تعديل فى الصيغة إنما يعنى تعديلا فى المعنى .

ويدافع ضياء الدين عن الخصائص المنفصلة أو المستقلة لكل من الألفاظ والمعانى والتى يمكن أخذها بعين الاعتبار ، أو مراعاتها فى عمل الشعر والكتابة فيقول « وإنّ القول بتلاؤم اللفظ والمعنى وعدم إمكان الفصل بينهما قول شبيه بالسفسطة ، وهو باطل من وجهين أحدهما أن المعانى إذا كانت لا تزيد عن الألفاظ فيلزم من ذلك أن الألفاظ لا تزيد أيضاً على المعانى لأنهما متلازمان على قياس من يقول بعدم الانفصال ، ونحن نرى معنى قد دل عليه بألفاظ ، فإذا أسقط من تلك الألفاظ شىء لا ينقص ذلك المعنى بل يبقى على حاله ، والوجه الآخر أن الإيجاز بالحذف أقوى دليل على زيادة المعانى على الألفاظ لأنا نرى لفظاً يدل على معنى لم يتضمنه وفهم ذلك المعنى ضرورة لا بد منه ، فعلمنا حينئذ أن ذلك المعنى الزائد على اللفظ مفهوم من دلالته عليه[1] » .

ولذلك فقد عرض لجملة من الخصائص التى تتوفر فى اللفظة المفردة لتكون

---

(١) المثل السائر ٢/٧٩ .

فصيحة . وافق فيها كثيراً مما ذكره ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة من قبل ، وخالفه في بعض مسائل جزئية .

فمما وافقه فيه أن تكون متناسبة المخارج حتى يسهل على اللسان النطق بها وإن اختلفا في معنى هذا التناسب فقد حدده ابن سنان بالتقارب جداً أو التباعد جداً ، ورأى ابن الأثير أن لهذه القاعدة شواذ ، وأن القياس الذي لا يخطئ هو الثقل على اللسان في النطق . ومنها عدم القرابة أو الحوشية وعدم الابتذال ، وهذه العيوب إلى جانب تركيبها من حروف متنافرة لا تروق في السمع فتثقل على الأذن .

وينبغي أن تكون الألفاظ مألوفة سهلة ، تقع معانيها قريبة من أفهام الناس ، ولا تكون صعبة مستغلقة . يقول : « وقد رأيت جماعة من مدعي هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعز فهمه ويبعد مناله ، فإذا رأوا كلاماً وحشياً غامض الألفاظ يعجبون به ويصفونه بالفصاحة ، وهو بالضد من ذلك ، لأن الفصاحة الظهور والبيان لا الغموض والخفاء[1] » .

كذلك ينبغي للألفاظ أن تتفق معانيها مع أصواتها وتراكيبها ، فالألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه فالجزل منها في مواقف الحروب ، وفي القوارع والتهديد ، والتخويف وأشباه ذلك ، ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجهية البداوة ، بل أعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ، ولذاذته في السمع ، ولست أعني بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسافاً ، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية ، الناعم الملمس[2] » .

ويرى أن بعض الألفاظ تحتفظ في بعض أبيات الشعر أو جمل النثر بخصائص معينة فتحيط نفسها بهالة من المعاني والظلال الجانبية والإيحاءات المختلفة فوق مدلولها المباشر ، أو معناها اللغوي . وتبدو براعة الأديب في القدرة على

---

(١) المثل السائر ١ / ٦٨ .
(٢) المثل السائر ١ / ١٦٣ .

استغلال هذه الخصائص فى الألفاظ كما فعل الشاعر فى استغلال لفظتى « كل حاجة » فى قوله :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

قال ضياء الدين : « إن فى قول هذا الشاعر كل حاجة » ما يستفيد منه أهل النسيب والرقة والأهواء والملقة ما لا يستفيده غيرهم ، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم ، ألا ترى أن حوائج منى أشياء كثيرة ، فمنها التلاقى ، ومنها التشاكى ومنها التخلى للاجتماع . . . إلى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به[1] » .

وقد يسمى تلك الألفاظ « جوامع الكلم » ويعنى تلك التى تتضمن من المعنى مالا تتضمنه أخواتها مما يجوز استعماله فى مكانها مثل قول النبى — ص — : « بُعِثْتُ فى نَفَسِ الساعة ». وقد أعجب بمثل هذه الألفاظ حتى قال : « وكنت إذا مررت بنظرى فى ديوان من الدواوين يلوح لى فيه مثل هذه الألفاظ فأجد لها نشوة كنشوة الخمر وطرباً كطرب الألحان » .

وأما آراؤه فى تأليف لعبارة ، فهو يرى أن الترتيب المنطقى حسب قواعد اللغة ليس الترتيب الأمثل فى التعبير الأدبى ، وإنما المقياس فيه الذوق والإحساس الصادق بقوة المعنى وقوة التعبير عنه لا سلامته ، فالسلامة العقلية التى تتوخاها قواعد اللغة ، ويتوخاها المنطق لا اعتبار لها وحدها فى ميزان النقد والبلاغة « فأسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية ، وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية » .

ومما ضربه للجائز لغة ، القبيح بلاغة لفظة الفقود فى بيت عنترة :

فإنْ يَبْرأ فلَم أَنْفُثْ عليه وإن يُفْقَدْ فحُقَّ له الفُقُودُ

فقوله الفقود جمع مصدر من قولنا فقد فقداً . واستعمال هذه اللفظة غير سائغ ولا لذيذ ، وإن كان جائزاً ، ونحن فى استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحسن لا مع الجواز ، وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم ، فإن صاحب

---

(١) المثل السائر ١/٥ .

هذه الصناعة يصرف الألفاظ بضروب التصريف ، فما عذب فى فمه منها استعمله ، وما لفظه فمه تركه » .

وتختلف عنده العبارة الأدبية أو الفنية عن العبارة العلمية أو المنطقية فى أن الثانية تقصد إلى المعنى مباشرة دون زيادة أو نقص ، بخلاف الأولى التى تحتمل أشياء كثيرة وقديمًا حاول اللغويون والمناطقة وبعض النقاد قياس الشعر بالمنطق ومقاييسه وحدوده فثار عليهم البحترى :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه

يعنى أن المنطق يبحث عن الصدق أى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وأما الشعر فيحتمل كثيراً من المجاز والتأويل .

ولهذا استخدم الأدب الأسلوب المجازى بفنونه التعبيرية المختلفة من إيجاز وإطناب ومجاز واستعارة وتشبيه وكناية وتورية ومبالغة وتقديم وتأخير وما إلى ذلك .

وقد عمد إلى عدم الاكتفاء بمخاطبة العقل بل إلى ضرورة التأثير على المشاعر والأحاسيس وإثارة الانفعالات المختلفة عن طريق التخييل أو مخاطبة الحواس ، والإيهام . وذكر ضياء الدين أن دور المجاز فى التعبير الأدبى هو « إثبات الغرض المقصود فى نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عيانًا » .

وكلما قويت الصورة المجازية فى ذهن السامع قويت دلالتها ، فالتشبيه المضمر أبلغ من المظهر وأوجز ، أما كونه أبلغ فلجعل المشبه مشبهاً به من غير واسطة أو أداة فيكون هو إياه ، فإنك إذا قلت : زيد أسد كنت قد جعلته أسداً من غير إظهار أداة التشبيه . . . وأن الغرض المقصود من قولنا زيدٌ أسدٌ أن نتبين حال زيد فى اتصافه بشهامة النفس وقوة البطش ، وجراءة الإقدام ، وغير ذلك مما يجرى مجراه ، إلا أنا لم نجد شيئًا يدل به عليه سوى أن جعلناه شبيهًا بالأسد حيث كانت هذه الصفات مختصة به ، فصار ما قصدناه من هذا القول أكشف وأبين من أن لو قلنا : زيدٌ شهم شجاع ، قوى البطش جرىء الجنان وأشباه ذلك .

لما قد عرف من اجتماع هذه الصفات فى المشبه به أعنى الأسد ، وأما زيد الذى هو المشبه فليس معروفاً أنها كانت موجودة فيه[1] » .

والتصوير فى التعبير الأدبى ضرب من المحاكاة ، وهو عنصر أساسى فى كل الفنون ، فالفن فى أساسه محاكاة للطبيعة ، ولكنها محاكاة تتلون بلون الفنان وموضوعه ويستخدم الفنان المحاكاة للتعبير عن تجربة أو قضية فنية أو اجتماعية أو ذهنية أو تجربة ذاتية ، فإذا خلت المحاكاة أو الصورة الأدبية من هذه المضامين قلت قيمتها الفنية لدى بعض النقاد ومنهم ضياء الدين بن الأثير ، فهو لا يكتفى من الشاعر مثلاً بأن يصور ما يرى تصويراً مجسماً أو دقيقاً فينقله إلى السامع بحيث يتصوره وكأنه يراه ويلمسه بيده . كما فعل أبو نواس فى وصفه لكأس الخمر :

تُدارُ علينا الرَّاحُ فى عَسْجَديَّةٍ ... حَبَتْها بأنواعِ التَّصاوِير فارسُ
قرارتُها كِسْرى وفى جنباتها ... مَهاً تدَّريها بالقِسىِّ الفوارس
فلِلرَّاحِ ما زرت عليه جيوبها ... وللماء مَا دارت عليه القلانِسُ

فهو مجرد حكاية حال مشاهدة بالبصر. والمعنى أو الصورة المخترعة على غير مثال أبدع عنده وأجمل . « المعانى التى تستخرج من غير شاهد حال متصورة فإنها أصعب مثالاً مما يستخرج بشاهد الحال ، ولأمر ما كان لإبكارها سر لا يهجم على مكانه إلا جَنانٌ شهم ، ولا يفوز بمحاسنه إلا من دقَّ فهمه حتى جل عن دقة الفهم » .

ومع ذلك فلا يصح أن يجتلب الأديب الصور من حيث وليس فتكون غريبة غير مألوفة ، أو يركب بعضها إلى بعض بحيث لا تقبل عقلاً ولا تتصور فى الواقع . وإنما عليه أن يلائم ما استطاع ويوفق بين ما تقع عليه الحواس وبين مايخترعه فيأتى بالجديد وكأنه واقع مشاهد وهو على مثال معروف أو ممكن غير مستبعد .

ويوازن ضياء الدين بين بيتين من الشعر أحدهما محاكاة أو صورة ، والآخر

---

(١) المثل السائر ١ / ٢٩٣ .

تجربة أو شعر له غاية غير مجرد التعبير عن صورة . فيفضل الثانى عن الأول وذكر قول امرئ القيس يصف عشّ انعقاب وما به من بقايا صيدها من الطير :

كأنَّ قُلوبَ الطَّيرِ رطْباً ويابساً لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحشفُ البَالِى

وقول النابغة يصف تجربته مع الأصدقاء :

ولسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّه على شَعثٍ أىُّ الرِّجَالِ المهذَّبُ

قال ضياء الدين : « قالوا هذان البيتان لا يمكن المفاضلة بينهما لأنهما اشتملا على معنيين مختلفين ، فهذا حسن فى بابه ، وهذا حسن فى بابه ، وأما أن يقال هذا أفضل من هذا فلا لأن التفاضل إنما يظهر بالاشتراك فى صفة واحدة وهذا المذهب عندى فاسد . والمذهب الصحيح الذى يثبت على محكّ النظر أن المفاضلة تقع بين الكلامين سواء كانا متفقين فى المعنى أو مختلفين » .

ويرى أن هذين البيتين قد اختلفا فى المعنى « ومعدلة الحكم تقضى بأن بيت النابغة أفضل ، لأنا إذا نظرنا إلى لفظيهما ومعنييهما وجدناهما من جهة اللفظ سواء . . . وأما من جهة المعنى فإن بيت النابغة أفضل وذلك لأنه تضمن حكمة تعرف عن تجربة الإخوان فيتأدب بها الغرّ الجاهل ويتنبه لها الفطن الأريب ، والناس أحوج إلى معرفته من معرفة التشبيه الذى تضمنه بيت امرئ القيس . وغاية ما فيه أنه رأى صورة فحكاها فى المماثلة بينها وبين صورة أخرى ، وليس ثم سوى ذلك . وبيت النابغة حكمة مُؤدّبة تستخرج بالفكر الدقيق[1] » .

ولسنا مع ابن الأثير فى رأيه . فالتصوير هنا يحوى مضموناً جمالياً ، فهو يدلّ أو يوحى من وراء هذه الصورة المحكية بقوة العقاب وشراستها فى الإغارة على صغار الطير وافتراسها . وليست المعانى المفصلة أو المقدمة دائماً هى المعانى الأخلاقية كما فى بيت النابغة المفيدة للناس والمجتمع . كما أنه لا ارتباط عند كثير من علماء الجمال بين الحقيقة الأخلاقية أو الدينية والحقيقة الجمالية وإن كان بعض من

(١) الاستدراك المقدمة .

يرى التلازم بينهما من النقاد يذهب إلى ضرورة أن يستهدف الأدب النفع للحياة والناس .

وصاحبنا ضياء الدين فيما ذهب إليه يرى نَفْع الأدب للحياة كما كان كثير من علماء العرب . وخاصة ابن قتيبة .

وليس معنى ذلك أن ضياء الدين ابتعد عن قياس الأدب بمقياس الجمال واللذة أو بمقياس الذوق ، والحق أن المنفعة واللذة كانتا دعامتى مقاييس ضياء الدين فى النقد والبلاغة .

فى مجال اللفظ اهتم بما كان له وقع حسن يلذ للسمع ، وقد تكون لذة السرور أو نشوة البهجة أو لذة الألم . كما ينبغى أن لا تكون مما يقبح أخلاقيًّا أو مما ابتذله العامة فى معان قبيحة .

وكثيراً ما تراه يحكم على الشعر بأنه يثير النشوة فيقول مثلاً : « وكنت إذا مررت بنظرى فى ديوان من الدواوين ، وياوح لى فيه مثل هذه الألفاظ أجد لها نشوة كنشوة الخمر ، وطربًا كطرب الألحان[1] » .

ويصف وقع الشعر فى النفوس وقعًا مطربًا فيقول فى أبيات الشاعر :

بأبى غزالٌ غَازَلَتْهُ مُقْلتى ... بَين الغُوَيْرِ وبين شَطَّىْ بارقِ
عاطَيْتُه والليل يسحبُ ذيلَهُ ... صَهْبَاء كالمِسْكِ الفَتِيق الناشِقِ
وضَمَمْتُه ضَمَّ الكمِىِّ لِسَيْفِهِ ... وذُؤَابتَاهُ حَمَائِلٌ فى عاتِقِ
حتى إذا مالت به سِنَةُ الكرى ... زحْزَحْتُه شَيئاً وكان معا نِقِى
أبعَدْتُه عن أَضْلُعٍ تَشْتَاقُه ... كى لا ينامَ على وسادٍ خافِقِ

« وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الأقصى ، ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصًا . والبيت الأخير هو الموصوف بالإبداع ، وبه وبأمثاله أقرت الأبصار بفضل الأسماع[2] » .

---

(١) المثل السائر ٢/٤٧ .
(٢) المثل السائر ١/٣٢٩ .

موقفه بين النثر والشعر :

ومع أن ضياء الدين قد ألف كتابه فى أصول الصناعتين « الكتابة والنظم » إلا أنه انتصر للكتابة ، وعلل تفضيله للكتابة بعدة أسباب رددها قبله بعض المنتصرين للكتاب على الشعراء . منها أن القرآن نص نثرى ، وأن الإعجاز متصل بالنثر ، وأن الكتابة أصعب طريقاً ، وأن الكاتب أحد دعامتى الدولة ، فكل دولة تقوم على السيف والقلم « وربما لا يفتقر الملك فى ملكه إلى السيف إلا مرة أو مرتين أما القلم فإنه يفتقر إليه على الأيام ، وكثيراً ما يستغنى به عن السيف . ويلخص قول الصابى فى ذلك إذ يقول إن طريق الإحسان فى المنظوم يخالف طريقه فى المنثور معللاً ذلك بأن الترسل « هو ما أعطاك سماعه فى أول وهلة ما تضمنته ألفاظه وأفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة » .

وأن الشعر بنى على حدود مقررة وأوزان مقدرة ، وفصلت أبياته فكان كل بيت منها قائماً بذاته ، وغير محتاج إلى غيره إلا ما جاء على وجه التضمين وهو عيب ، فلما كان النفس لا يمتد فى البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه — وكلاهما قليل — احتيج إلى أن يكون الفضل فى المعنى ، فاعتمد أن يلطف ويدق ، والترسل مبنى على مخالفة هذه الطريق إذا كان كلاماً واحداً لا يتجزأ .

هذا خلاصة كلام الصولى كما رواه ابن الأثير ، وقد اعترض عليه فى مواضع وانتقد مسألة الغموض فى الشعر ، قائلاً إن الأحسن فى الفنين إنما هو الوضوح والبيان . كذلك رأى أن القول بأن سبب عمد الشعر إلى التركيز المؤدى إلى الغموض أحياناً مراعاة للبيت الواحد فى عروضه وقافيته هذا القول فاسد . كذلك فإن موضوعات الشعر والنثر متقاربة بل هما يشتركان فى كثير منها : « وأى فرق بين الشاعر والكاتب فى هذا المقام ؟ فكما يصف الشاعر الديار والآثار ، ويحن إلى الأهواء والأوطان ، فكذلك يكتب الكاتب فى الاشتياق إلى الأوطان ومنازل الأحباب والإخوان» (١) .

---

(١) المثل السائر ٢ / ٤١٤ .

وبذلك لا يرى فيما ذكره الصابى فروقًا حقيقية بين الكتابة والشعر ، ويتلخص الفرق بينهما عنده فى ثلاثة أمور هى : النظم ، وجواز استخدام بعض الألفاظ فى الشعر وعدم جوازها فى النثر ، أى أن للشعر لغة خاصة أو ما يمكن أن يعد لغة أو مستوى لغويًا خاصًا به ، والثالث تفاوت عرض الشاعر لموضوعه بين الجودة والرداءة أو الارتفاع والهبوط لضيق مجال الوزن والقافية بعكس الكاتب الذى يستوى نفسه فى الرسالة فى كل أجزائها .

ويعرض ضياء الدين لمقارنة طريفة بين الشعر العربى والشعر الفارسى فيقول « وعلى هذا فإنى وجدت العجم يفضلون العرب فى هذه الناحية المشار إليها ، أى التقيد بالوزن والقافية — فإن شاعرهم يذكر كتابًا مصنفًا من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف بشاهنامة ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحائهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر » .

موقفه من الكتاب والشعراء :

وتعرض ضياء الدين فى كتابيه « المثل السائر » و « الاستدراك » لنقد بعض الكتاب والشعراء ، وأكثر من تعرض لهم من سابقيه أبو هلال الصابى ؛ فلم تعجبه طريقته فى الكتابة ، وخاصة فى تكرار معانى عباراته وتناسب فقراته ، ويعرض جملة من رسائل الصابى ورسائله الخاصة ثم يعقب عليها بقوله : « وكلام الصابى فى هذه التقاليد الأربعة لم أقصد به الوضع من الرجل وإنما ذكرت ما ذكرته لبيان موضع السجع الذى يثبت على المحك ، ولا شك أن هذا الوصف المشار إليه فى فقر الأسجاع لم يكن مقصوداً فى الزمن القديم إما لمكان عزه أو أنه لم يتنبه له . وكيف أضع من الصابى وعلم الكتابة قد رفعه وهو إمام هذا الفن والواحد فيه .

ولقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد فى السلطانيات كل الإجادة وأحسن كل الإحسان ، ولو لم يكن له غير كتابه الذى كتبه عن عز الدولة بختيار بن بويه إلى سبكتكين عند خروجه عليه ومجاهرته إياه بالعصيان لا ستحق به فضيلة التقدم ، كيف وله من السلطانيات ما أتى فيه بكل عجيبة ، لكنه فى الإخوانيات مقصِّر ، وكذلك فى كتب التعازى ، وعندى فيه رأى لم يره أحدٌ غيرى ، ولى فيه قول لم يقله أحد سواى ، وذاك أن عقل الرجل فى كتابته زائد على فصاحته وبلاغته . . . » ثم يحيل القارئ على ما أورده من رسائله منبهًا إلى ما فيها من وصايا وشروط واستدراكات وأوامر ما بين أصل وفرع وكل وجزء ، وقليل وكثير . يقول : «ولا نرى ذلك فى كلام غيره من الكتاب إلا أنه عبر عن تلك الوصايا والأوامر والشروط والاستدراكات بعبارات فى بعضها ما فيه من الضعف والركة . وقد قيل إن زيادة العلم على المنطق هجنة ، وزيادة المنطق على العلم خدعة . ومع هذا فإنى أقر للرجل بالتقدم ، وأشهد له بالفضل » .

ويتعرض من حين لآخر للقاضى الفاضل ويحاول غمزه والإقلال من شأن كتابته ، وقد أخذ عليه مرة التقصير فى موضوع رسائله ومرة أخرى عدم مناسبتها للمقام ، ومرة ثالثة المبالغة وعدم التناسب فى الصور البيانية بين تشبيه واستعارة ولكن موقفه من القاضى الفاضل مشوب بالهوى إلى حد كبير لما كان بينهما من تعاصر ولتقدم الفاضل عليه ووقوفه مع العادل والعزيز عثمان ضده .

أما عن موقفه من الشعراء فقد ذكرنا أنه أعجب بأبى تمام والمتنبى لأنهما جمعا بين الفن والعقل ، أو بين الصنعة والطبع ، وثالث من يعجب بهم من الشعراء البحترى ويعرض لبعض المحدثين فيعجب بهم أحيانًا ويؤاخذهم على بعض ما سقطوا فيه أحيانًا .

ولا يتعصب كغيره من العلماء وأكثر النقاد للقدماء لتقدمهم ، بل يحكم على الشعر سواء القديم أو المحدث بما له أو عليه ، وإن كان أكثر ميلاً إلى معانى المحدثين وجمال صنعتهم .